نجيب الخالدي

رشفات الوجع



مجموعة قصصية

دار أبي رقراق
للطباعة والنشر

رشفات الوجع

نجيب الخالدي

رشفات الوجع

مجموعة قصصية

الكتاب : رشفات الوجع
المؤلف : نجيب الخالدي

الطبعة الأولى : 2016
الإيداع القانوني :
ردمـــك :

الطباعة والإخراج الفني
دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3* ، حسان - الرباط
الهاتف : *05 37 20 75 83* **- الفاكس :** *05 37 20 75 89*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

الإهداء

بين أحضان العتمة

ودوي الصمت

أنّـــات حرّى

ترشف الوجع

من جوف البراعم...

إلى

أطفال

بقلوب منكسرة ...

صمت وظلماء

باللعاب يغرق فمها ، تبلعه بهذا المذاق اللذيذ بنكهة الحلوى التي تحَيّيها عن بعد أو قرب، كلما سارت بهذه الطريق التي تسلكها يوميا. تردد في نفسها:

- لا أعتبرها سرقة أو خيانة أمانة، إنها مقابل مجهودي...

تستفيق على منبّه سيارة كادت تسرق منها برعم الحياة، تواصل المسير بقدميها الزرقاوين وأصابعها المطلّة كعيدان من شبشبها المتآكل من كل الجوانب، اِبتاعته لها خالتها في سبيل الله بمناسبة عيد الفطر قبل الأخير، توثِره على حذاء الرياضة الذي لم يعد بمقاسها، فلا يزال ألمه يسكن مقدّمة أصابعها، رائحته تزكم الأنوف وتلقي بعيدا من يقاربها. يسخر منها أندادها كلما فاحت منه الرائحة التي أصبحت تسِمها، ويبدأ الذكور في مساومتها عليه وهم يتراشقون بالغمزات ويكركرون:

– إنه مخدّرنا المفضّل، نطير به بعيدا هنااااالك، بكم تبيعينه، ستصبحين غنية هاهاها...

تتناوب يداها النحيفتان على الحمل، تتعثر في مشيها بين الفينة والأخرى، فشبشبها لا يلائم هذه الأرض المحفورة المتربّة، ولا هذه الحواجز من النفايات والمهملات التي تؤثث طول الطريق. يبدأ قلبها في الخفقان، يكاد الخوف يقتلعه من جذوره ويعتصره من شدة الرعب، إنها تعي جيدا مصيرها الأسود الذي ينتظرها إن كَبتْ مهمتها ، فقد مرت بالتجربة عدة مرات وتعرف النتيجة حق المعرفة.

تضع القفة أرضا لتستعيد أنفاسها، يحلق بصرها هناك وهنالك، ثم تستأنف المسير من جديد. صوت أبيها الأجشّ كالرعد يجلجل في سمعها، صداه يلاحقها ويدفع بها على ظهرها إلى الأمام، لا يمكنها الالتفات إلى الوراء، لأنه اتجاه ممنوع ومحفوف بالمخاطر. تتحسس الآن يده الشائكة تمرّ في لهفة على صدرها الهزيل، تتسلل كأفعى بين فخذيها الرقيقتين، تتمسح بكل

الأرجاء... حفظت لازمته عن ظهر قلب وهو يضمّها إليه بزفير أنفاسه وصلابة راحتيه، فيكاد يخنقها ويكسّر ضلوعها ضلعا ضلعا:

- كبرت... غزالة... بابا يحبك، بابا يحـ بـ بـ بـ..ك ك ك ...

تنعتق أحيانا من قضبان هذا الضمّ الخانق لروحها عند صراخ أمها الصاخب وهي تهرول صوبهما:

- يا بن الزنا، إنها ابنتك، ابنـ نتـ كـ كـ... لعنة الله عليك يا بن الفاجرة...

يدفعها بصلابة يده الغاضبة، فيرمي بها بعيدا، ثم يغادر وهو يصبّ جام اللعنة عليها وعلى من أنجبها وعلى الجميع. وما عدا تلك اللحظات التي تتدفق فيها مشاعره فيغدو في كلامه هادئا، فإنه على الدوام ثور هائج يخور في وجهها نارا، خاصة إذا لم تنحن لطلباته التي لا تنتهي.

هو الآن أمامها يمدّها القفة، ينظر إليها واللهب المنبعث من عينيه الجاحظتين يلفح نظراتها، يحرق عينيها الذابلتين المنطفئتين، وبصوته الصاخب يزمجر في وجهها:

- اصغي إلي جيدا، لا تعودي إلى البيت إلا والقفة فارغة، احذري التصرف في النقود، السرقة حرااام، وخيانة الأمانة حرااام... هل تسمعين؟ هيا انطلقي، انطلقي...

ثم يدفعها بمقدمة أصابعه الخشنة المحدودبة حتى تكاد تسقط على وجهها.

تضع القفة أرضا، تفتح يدها بصعوبة، تُطبقها ثم تفتحها، تمدّدها لتتأمل احمرارها الذي يكاد ينفجر دما، تبحلق في بصمة مقبض القفة التي تشكلت بدقة متناهية على راحتها الرقيقة، تسترجع أنفاسها وتتخذ بداخلها قرارا:

- حلواي لا بد أن أشتريك، سأشتريك في العودة، لن يكتشف أمري، مهما كان الأمر سأشتريك...

تبتلع ريقها، تنقل القفة إلى يدها الأخرى ويقودها المسير إلى وجهتها. لكن، ماذا لو لم تعد بالقفة فارغة ؟ لا يزال توقيع الحزام يتكلم على ظهرها، والرضوض والكدمات تؤثث رطيب جسدها، تتدخل أمها لتنقذها من مخالبه وهي تصرخ ملء جوفها:

- اُتركها يا بن الزنا، يا سكّير، ستزهق روحها بهذا الحزام، ما ذنبها إن لم يُيسِّر لها الله اليوم! كان الأحرى بك أن تقوم أنتَ بهذا العمل يا جيفة الرجال...

ثم تدفعه، فيكاد يسقطه ترنّحه أرضا لولا تمسّكه بالجدار. يغادر وهو يصبّ جام اللعنة عليها، وعلى من أنجبها وعلى الجميع.

وبعد أن يخبو غضبه، وفي عزّ الليل تستفيق على يده تزمّ شفتيها، والشوك ينغرس من جديد في صدرها وبين فخذيها وفي كل أنحاء جسدها. يلتهمها الذعر، يقطع لسانها الخرس، ترتعش فرائصها بصقيع اللحظة، ثم تغرق في بحرٍ من دموعٍ حرّى تحت أعين الصمت وتموّجات الظلماء.

تكفكف دموعها الهائجة، تبسط على الأرض الملاءة، تحكّ من فوق لباسها صدرها ومناطق مختلفة من جسدها، تُخرج من القفة محتوياتها ترتبها على الملاءة، يغرق فمها باللعاب من جديد، تبلعه... تردد:

- حلواي لا بد أن أشتريك...

الزيارة

تستقر عيناي عليها كل يوم عندما أغادر بيتنا إلى المدرسة أو للسخرة لدى الخضار أو الدكانيّ... تضطرم حرقة في جوارحي وأنا أحدّق فيها وهي على هذا الوضع كئيبة حزينة، غير قادرة على لفت أنظار المارة ولا استهوائهم. تبدو بلا روح، وجثتها عفنة نتنة ملقاة على الأرض لا تعبأ بها العيون ولا الخطوات ولا حتى وشوشات الفضوليين. يسري دبيب الألم في عروقي كما يسري الموت في عروقها، تتضاعف جرعاته كل يوم وربما كل لحظة وأنا أرنو إليها. لا أستطيع التخفيف عني بتغيير وجهة طريقي حتي أتجنب ملاقاتها، لأني أجدها ملازمة لي بموقعها الدائم قبالة بيتنا على بضعة أمتار.

لم أسترق منها يوما فرحة صغيرة بتغير ملامحها، فما يؤثثها دوما يدنّس العين ويكسّر القلب. أحجار متراكمة تنبت على

كل الجنبات، ما تبقى من العشب يلبسه اليُبس وتعتريه الصفرة الفاقعة، نباتات طفيلية تتدلى أعناقها شاحبة نحو الأرض المتربّة، شجرتا ليمون يتيمتان، الواحدة أمام الأخرى تتبادلان الشكوى والآهات الحرّى. في الوسط يبدو طلل نافورة ضربها جفاف عاصف، وجعل من حوضها ملاذا آمنا لتبوّل وتغوّط الصغار والكبار، وجبال الأزبال المثبتة على أرضها، تساهم بسخاء كبير في نتانة الروائح المنبعثة من كل المواقع...

سألنا معلمنا ذات يوم عن أمنياتنا. أجبته بلهفة الجائع: أن تصبح حديقة حيّي حقيقية. فعلا، كانت هذه الأمنية غالية عندي، تدغدغني صباح مساء، ليل نهار، بل وفي ثنايا كل اللحظات، لكن كنت أردّد دوما في نفسي: محال أن تتحقق أمنيتي، فأرى حديقتي بهيّة نديّة، أجري بين وردها وزهرها، أستظل بوارف ظلها وأصف في إنشائي جنان روحها ... زادني هذا التمني ألما على ألم عندما تأكدت باليقين الملموس من استحالة تحقق أمنيتي.

حسب رواية أبي، كانت هذه الحديقة الفردوس على الأرض، بناها المستعمر اعتناء بمستوطنيه الذين قطنوا حيّنا، فجعلها مرتعا

خصبا لراحتهم وقِبلتهم الفضلى لاستجمامهم ... كانت أكبر بكثير مما هي عليه الآن، لكن بعد بزوغ فجر الحرية والاستقلال، اجتث باشا المدينة جزءا كبيرا منها لغرس هذه الدكاكين التجارية التي هي الآن متراصة بمحاذاتها... أردف أبي قائلا:

- كاد الإسمنت يلتهمها كاملة يا بني لولا ستر الله.

- لكن لماذا هي الآن هكذا أبي !

ذات صباح، وأنا في طريقي إلى الدكانيّ، فإذا بي وكأني بين أحضان حلم وردي يهدهدني. أبدأ في فرك عينيّ حتى أكاد أفقأهما، أضرب على وجهي لعلي أتأكد من أني خارج زمن الحلم... لكنها الحقيقة. حديقتي في أبهى حلة. تتدفق فيها النضارة شلالات عذوبة وبهاء. نخلات مقلمات ترتمين في أحضان السماء، شجرات تتفجر أزاهير يانعة، عشب ناصع الخضرة يناجي الورد والياسمين، كراسي خشبية بنيّة اللون لامعة على كل الجنبات، ممرات مكسوّة بحصيّات بيضاء دقيقة ترحب بالزائرين ... اقترب منها أكثر فأكثر لألامس بنظري وسمعي نافورة مطرّزة بالبهاء، يرقص فيها الماء رقراقا رقصات فلكلورية رائعة، فتتراقص معه

نبضات قلبي، وتتدفق مع انسيابه في نفسي سعادة غامرة بلا حدود. سأرتادك حديقتي كل يوم، أرشف من أحضانك السرور والاِنشراح، أسقي منك جدب شوقي الكبير إليك حديقتي... وأنا في غمرة هذا الانتشاء، طرقت ذهني علامة استفهام كبيرة: كيف تحقق هذا التحول الهائل وقد تركت الحديقة مساء تنام على سرير كآبتها !

غدوت أسكن حديقتي، أرتمي في كنفها، أعانقها، ألثمها، أتنفسها عطرا وأريجا ونسمات سعادة، أحبتني حديقتي وأحببتها... أحييها ذهابا وإيابا، أناجيها ليلا ونهارا، في البيت والمدرسة وفي كل مكان، أشتاق إليها كلما ابتعدت عنها وكلما تواجدت بقلبها أعدو وألهو وأستمتع بحضورها... أحمدك يا ربي وأشكرك على استجابتك دعائي وإهدائك أمنيتي الجميلة...

لم أستفق بعد من اندهاشي الجميل، ولم تمرّ أيام محسوبة على رؤوس الأصابع، حتى بدأت سعادتي بحديقتي تتلاشى بتلاشيها وتنطفئ بانطفائها. ركبني همّ أسود بدّد النور في عيني وأنطَق بداخلي الدمع والأسى، وأنا ألاحظ أعراض انتكاسها تتقوّى يوما

بعد يوم، وحمى المرض تفور على جبينها لحظة بعد لحظة، إلى أن سقطت صريعة تنبعث من جسدها الممدّد على العفن روائح النتن والأسن من جديد... بحزني الغائر وصوتي المنكسر سألت أبي:

- هل ممكن أن يزورنا الملك ثانية؟

جنون ونسيم

....

- أنفاسكَ ضمّخت خفقي، وأريجك غدا يسري في محارات عروقي... غدوت الأنوار في حياتي، بدّدت الظلمة على مساحات روحي...

- لا أكاد أصدق...

- لا تصدق ماذا؟؟

- كيف همسكِ الليليّ المرصع بأنفاس شِعرك، يداعب في نبضي مناطق ظننتها في عداد الموتى، هاهي الآن وبسحرك تبعث من جديد، تلملم شظايا الروح بعطرك الذي تنسمته من خدك أول لقاء...

- والله خائفة من شلالاتك، قد تضمر قتلي...

- لامسي حرفي وجسّي نبضه تدركين الحقيقة، لكن احذري أن يوقظ بصوته الصاخب النائمين حواليك...

- أفقدتَني البوصلة حبيبي ...

- هل تسمح لي مولاتي بالمغادرة؟

- تعبت مني..!!

- مولاتي، لم يبق لانبلاج الصبح من صبحك إلا لحظات، وأشغال كثيرة في انتظاري هذا اليوم...

- لا بأس مولاي، أنا في انتظار مكالمتك أو على الأقل رسائلك. لا تنس مسح المحادثة

- Bye 🙂

- Bye ❤

- 🙂

...

تصلني منها ذات صباح رسالة على الخاص:

- صباح الخير

- صباح النور

- سأكون سعيدة بحضورك توقيع ديواني الثالث... بالمكتبة الأندلسية في مدينتك نهاية الأسبوع المقبل...

- يشرفني ذلك، هنيئا لك ومزيدا من العطاء...

- هدية ديواني تنتظرك...

- عميق شكري وكل الاحترام والتقدير...

لم أتوقع أن تراسلني على الخاص، أو لم أكن أهتم بذلك نهائيا... أتوقف عن التصفح، تتصاعد أنفاسي قليلا، ألامس في دعوتها الجميلة احتراما وتقديرا لكتابتي، أحس بمسؤولية الحرف، أجدها في هذه اللحظة جسيمة وأكثر. أعود لأقرأ دعوتها من جديد، تروقني كلماتها، أشكرها في نفسي مرة أخرى، بينما يتقوى يراعي بشحنة إضافية استعدادا لفتوحات البياض. أعود من جديد للإبحار، وصفحتها المحطة الأولى.

رغم زحمة أشغالي، أقرر حضور حفل التوقيع والتعرف إليها صديقة محترمة. فمنذ مدة لم أحضر حفل توقيع كتاب، أجد في دعوتها مناسبة أجدد فيها صلتي بهذه الطقوس الجميلة من خلال صديقتي الشاعرة.

...

- مساء النور

- أهلا وسهلا

- تأخرتَ في الاتصال بالشبكة، وهذا يقلقني...

- ها هي حروفي تتنفس بجوارك...

- يلهبني الشوق إليك، أريدك بقربي أرتمي في أحضانك، تخنقني... لا يهم إن مت في حضرتك، ستكون لموتي بين أنفاسك الحياة، لم أعد أطيق بُعدك، أنت تعذبني...

- أنا أيضا اشتقت إليك... أنهارك تسقي ظمئي، تروي جدبي، تسري في شرايين نبضي ربيعا أخضر...

ولكن...

- ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

- أرى مشاعرنا جامحة، تركض بلا لجام في ضباب المجهول... ربما يجب علينا التروي قليلا غاليتي...

- ماذا تقول؟؟؟... أنت تلقي الكلام على عواهنه، كلاااامك يجعلني قِدرا تغلي، ريحا صرصرا تنفخ في غضبي... هل تريدني أن أصرخ في عزّ هذا الليل... أجبني....

- اِهدئي غاليتي، اِهدئي...

- تورطني في عشقك ثم تتحدث عن لجاااام وتروّ... يا سلااااااام...

- اِهدئي غاليتي

- أنت جبان، جباااااان، لا تعرف للعشق دربا...

- لنفكر قليلا في وضعنا...

- اُتركني لحالي يا جبان... ولا تتصل بي... أكرهك أكرهك أكرهووووووووك...

...

يقع نظرها علي، تتصفح عيناها هيأتي، يتفتح ثغرها بابتسامة مشرقة، تمد يدها تصافحني:

- أستاذ رامي، قاصّنا الجميل...

- سعيد بلقائك على الواقع حدائق الشعر...

- أهلا وسهلا...

- لي كل الشرف وأنا في حضرة بهائك الشعري، عذرا إن لم أحضر الورود، ليس ذنبي، فهي تغار ممن يفوقها...

تقاطعني:

- رجاء، اِمنحني لحيظات ثم أعود إليك أمنحك هديتك.

بعد انفضاض الجمع، وبدون مقدمات تسأل عن أحوالي، عن تجربتي القصصية... أثرنا وبفوضى عارمة موضوع الأجناس

الأدبية، قصيدة النثر، التقاطع بين الشعر والقصة... تبدو في سعادة عارمة ينطق بها انشراح تقاسيمها ورقصات حركاتها وتموجات صوتها. نقف عند الباب الخارجي، يسود صمت مفاجئ، تكسره:

- لم أوقّع نسختك بعد...

أقرأ في كلامها رغبة في مواصلة الحديث، وهي الرغبة نفسها التي خفقت في داخلي. يداهمني عطش، وهي الكأس المنعشة لإطفاء هذا العطش:

- هل يمكن أن نتناول مشروبا معا...

- بشرط... أن يكون بنكهة القصّ الجميل.

نمتطي السيارة، تقودنا في اتجاه مقهى جميل ومحترم في ضاحية المدينة، أشغل موسيقى هادئة، أخفض مستوى الصوت، تاركا المجال لحديثنا عن الجمال، الحب، العشق، الإبداع... حديث يلغي كل الحدود الممكنة بين رجل وامرأة في أول لقاء.

...

- مساء الخير 

- مساء النور 

- في غيابكَ...  تلفني العتمات

تحضنني أنفاس الموت

يربت نبضي لهيب الحنين

يحرقني، أغدو رمادا

لا يبعث روحي...

- حروفكِ ترْشَح وجَعا ووهَجا.. . 

- وليدة اللحظة...

- لم تتصلي منذ مدة...

- وهل اتصلتَ أنت؟؟؟

- صمتكِ البهيم... 

يداهمني

ينهش روحي

يمزق خفقي

يغتال زهري

يصلبني

على مسافات الشوق إليك.

- 

- غاليتي، لا أريدك أن تتأذي...

- مللت من هذا الكلام... إما أن تغمرني بعشقك، وإما...

- وإما ماذا؟؟؟؟

- اِرحل نهائيا، واتركني أموت بين قضبان صبري...

- هل تظنيننا أحرارا في اختيار مصيرنا..؟؟؟

- ظننتك ستروي عطشي، لكني أراك تزيدني جدبا... لا تستطيع تقدير عشقي لك...

- وهل نسيتِ مشاعري أنا؟؟؟؟

- لا أومن بالمنزلة بين المنزلتين، ولا اللعب على الحبلين...

- أفكر في العواقب أكثر من أي وقت مضى...

- وأنا أفكر في خيباتي معك ....

...

تتصفح نظراتي اشراق وجهها. عينان طائران أخضران يحلقان على امتداد مدى بلا حدود، شفتان قرمزيتان متوهجتان، شعر ليليّ يتدفق شلالا على كتفيها، تراقِص بعض خصلاته نسائم الشاطئ... تقاطع تأملي:

- كيف تجدني؟

- آسِرة... كشِعرك...

تنشد في همس قصيدة، وأنامل أنفاسها تداعب جوانب من وجهي وأعلى صدري، وبريق عينيها ثملا يراقص نظراتي، وبحركة إرادية تلتصق ذراعانا... توقف إنشادها لتضم يدي بين يديها... يسري في عروقي دفء مفعم بخفق النبض، يشرع للتوّ في إذابة جبال جليد بداخلي، فتتهاوى قطعة قطعة، وبصوت هادئ مستسلم لجمال اللحظة تردف:

- إنك نصفي الضائع الذي كنت أبحث عنه...

- إلى هذا الحد...؟

- عشقتك افتراضيا، وسيفتق عشقي واقعيا أيها القاص ...

- ناديني باسمي، رااامي

- رميتني بسهمك يا رام...

يغازل الغبش النور، يستلطف مغادرته ليفتح الأبواب مشرعة أمام بهاء الليل المرصع بالبدر والنجوم، وتحت عطر اللحظة المثال، لحظة أنخاب الشعر وشهوة الجسد وخفق النبض وإيقاع انسكاب الموج، نغادر المكان...

...

نصل إلى الفندق، أنثر على خديها قبلا، تستنشق أنفاسي ثم تهمس في أذني :

- أنتظرك على الفايس، سأشتاق إليك حبيبي ...

- وأنا أيضا غاليتي...

...

لم يكن هاتفي يكفّ عن الاهتزاز، أتوصل برسائل تفوح بنفحات العشق وتحترق بلهيب الشوق، وفي كثير من الأحيان تلسعني بعتاب حاد كلما تأخرت عن الردّ أو تعذر علي ذلك. أراها تسارع الزمن، تطارد اللحظة باللحظة. أرسلت إليّ في عمق ليلة رسالة جاء فيها: حبيبي رامي، يجب أن نستغل ما تبقى من عمرنا الذي ضاع منه الكثير، الوقت يزاحمنا... أعشقك.

شاعرتي، تعزف على وتر السرعة بمهارة وإتقان، أدرك سرعة هذا الإيقاع وهوسها بامتصاص الزمن الجارف الذي قد يأتي على الأخضر واليابس، يحضرني «الحب الأعمى» عند ابن حزم، لكن الوضع هنا يختلف.

أخشى أن تؤذي نفسها، ففي عشقها جنون العاصفة، بينما حبي نسائم هادئة تنبعث من حدائق نبضي.

المرهونة

- انظري أيتها الوسخة، الصحون لا تزال مطبوعة بالمرق وكأن الماء لم يلمسها، انظري إلى هذا الكوب لا يزال قعره أسود، سوّد الله أيامك، اقتربي.

تزيد نحوها بأنصاف خطوات، وقلبها واجف وعيناها مرتجفتان لا تبرحان الأرض...

- قلت لك اقتربـ ي ي ي...

تطول يدها إلى شعرها، تجرها نحو طاولة ملتصقة بالأرض، وقد تراكم عليها ما أفرغته من أكواب وصحون وأباريق... تعيد تنظيفها وتجفيفها من جديد، ثم تشرع في ترتيبها على الرفّ قطعة قطعة. تستجيب لنداء جفنة التصبين التي تكدست بجانبها أكوام الملابس الخشنة المثخنة بالبقع الطينية والدهنية، تفرغ فيها ماء استخرجته للتو من البئر، تستعد يداها الزرقاوان لمصافحة

الصقيع، فتنفخ فيهما نفسها الساخن الذي يتضاعف في أصابعها الرقيقة المسلوخة من كل جانب. لم تكن قد شرعت في التصبين بعد، حتى يصلها نداؤها يزلزل سمعها:

– أراك قد نسيت «الفراكة» أيتها البلهاء، أراها أمامي هناك، هيا خذيها، أسرعي، لكن قبل ذلك، لملمي ما تناثر من الحطب، وضعيه في مكانه بجانب الموقد، هل تسمعينني..؟

في الليل يدخل الغرفة مشتعل الرغبة، يجدها في الفراش وقد اختطفها النوم إلى أحضانه، تدور عيناه في مَحجِريهما، يبلع فيضان لعابه، ثم يهفو إلى الفراش بجانبها يهزهزها، فتجد نفسها ملقاة على قارعة اليقظة تفرك عينين تأبيان الانفتاح، تساعده في إزالة ملابسها، يغوص في جسدها الرطيب البارد الممدد، يخنق أنفاسها، يلتهمها بشراهته التي لا تنتهي في عز هذا الليل البهيم.

تصيح في سمعها الديكة، تتسلل من الفراش البارد كالموت، تهمّ بمبارحة الغرفة في هدوء تام حتى لا توقظه، يئنّ إحساسها تحت وطأة الأشغال التي تنتظرها، تتصاعد دقات قلبها وهي تتأهب ليوم جديد من الضرب والقرص ووابل من الشتم وزخات

الإساءة. تداهمها يده، تلقف ذراعها لتقودها إلى صقيع الفراش من جديد، يوجّه استلقاءها باشتهاء رغبته، وبشراهته المعهودة، يرتقي عليها يلتهم فطوره الشهي مبكرا.

يداها ملتصقتان بالضرع، يتسلل إلى سمعها كلام أبيها وهو يُطلع أمها بأن الأمور تسير على ما يرام، وأنها ستنقطع عن الدراسة ابتداء من الغد، وتوقيع العقد سيكون في المقاطعة بالمدينة بداية الأسبوع...

ينزل الحليب في عمق الإبريق، و تنهمر الدموع حرّى من المآقي. تعلق أمها:

- سأهتم بتصبين ما تبقّى لها من ملابس، ثم نذهب إلى الحمام في المدينة... مسكينة الغالية بنت أختك، ستبلغ في الحصاد سنّ السادسة عشرة، بارت المسكينة...

تسمع صوتها يناديها:

- أيتها العجفاء، ألم تنتهي بعد؟ متى ستشعلين الموقد، متى ستحضرين هذا الحليب حتى تهيئي فطورنا..؟

ترتجف أصابعها الرقيقة على الحلمة، يداهمها الغثيان، تهرول الى المرحاض، تخرج منه بدوار يداعب سقوطها على الأرض. يصلها صوتها صدى يقرع سمعها:

- لا تقولي إنك مريضة أيتها المريضة بالكذب، لم تعودي صالحة لهذه الدار، ذنبي أنا التي جاريت ذلك المشؤوم في اختيارك...

ترد عليها بصوتها الخافت المنكسر:

- أرجوك... أريد أن أستريح قليلا...

- ترفعين عليّ صوتك... فلتستريحي في قبرك، ولنسترح نحن منك... لكن، لن يدوم الوقت طويلا، استعدي لتهييء أغراضك أيتها الجرباء.

ترمقهما العيون، ترنو إليها وقد تسلل الذبول إلى عودها الفتي. تقاوم المشي بالمشي، يعثرها لباسها والحفر المترامية على طول الطريق، فتكاد تسقط على وجهها، لولا تمسكها بجموح رغبتها في الوصول.

أمام الجميع، تزيحها عن جانبها مجاهرة:

- تسلّموا ابنتكم... لم تعد صالحة لابني...

تسود المكان جلبة... يتدخّل الأب يسألها وهو يمسكها من ذراعها:

- في هذه الحال، أين هو المبلغ المتفق عليه في العقد؟

لم تكترث لسؤاله، فتقدح عيناه شررا، وبصوت مجلجل يردف:

- هكذا اتفقنا... سيحضر ابنك الدين الذي وقّع عليه وإلا...

لم يكن قد أنهى كلامه بعد، حتى تفجرّ المكان صراخا اهتزت له أشجار الدوار اليابسة. يداها ممتدتان نحو العلياء، تصرخ رحمة ملء جوفها، يتعالى صوتها يشق عنان السماء، يتهاطل زخات حارقة... وفجأة، يتراءى جسم غريب أسود يسقط منها، يتدحرج على الأرض وسط دماء طفقت تجري في الدوار أنهارا.

في البدء كان الغياب

أطرق الباب، يفتح أمامي مشرعا. أرتمي في حقول أحضانها أشتم طيبها، ألثمها، أتحسس عينيها، خديها، أذنيها، شفتيها، أمرر كفي على شعرها الناعم المتدفق على كتفيها، أمكث طويلا بين أنفاسها الدافئة أتنفسها من الأعماق، أتنسم شميم جسدها عطرا يزيدني شوقا إليها، عيناي لا تقويان على مقاومة نورها المنبلج من صفاء حناياها... لا أقدر على الانفصال عنها لولا ذلك الألم في بطني، فألتفت إلى الطاولة التي تنتظرني بشغف كبير، وقد زينتها بكل ما أشتهيه من الطعام والحلويات... تنغمس شراهتي في التهام ما صنعته يداها، لكن أنسلّ من طقس الأكل لأتوجه إليها من جديد، أقبل رأسها، خديها كفيها... أوغل كامل وجهي في عمق صدرها أتمسّح برحابه، أتحسس ثديها الطافح بالحليب، ولولا حاجز الملابس، لترشّفته من حلمتها أرتوي من شهدها، فأنتعش كثيرا وأحلق بعيدا.

ليل دامس، وبرد قارس يسكن ظلمته يتسلل إليّ من تحت الباب والنافذة، صقيع الصمت يدوّي ويفرض سلطانه على المكان، يتكسر أحيانا بشخير أبي المتقطع في الغرفة المجاورة، شخير يؤنسني أحيانا وقد أنام على سرير إيقاعه. تصطك أسناني، أرتعش من زمهرير شرير لا يعرف رحمة ولا شفقة، هي وحدها تحس بي، تحس بدبيب هذا البرد يسري في عظامي، يكوّمُني، يُجمّدني وقد يقتلني، فأموت كما ماتت بائعة الكبريت. لا تريدني أن أموت أبدا، فتحث خطاها محضرة غطاء ساخنا يبث دفء الحياة في جسدي، أو قل في روحي أولا. هي تعرف أني ولجت فراشي بمعدة فارغة تعوي عواء الذئب، فلا تنسى طعامي الشهي، وقد وضعته هذه المرة في عمق خبزة كاملة، مسقية بالمرق الساخن اللذيذ الذي أحب... تلفّفني، تدثرني، تغلق كل الكوّات التي يتسرب منها البرد، تتأكد من تمام ارتياحي ثم تنصرف، لكن الصقيع الأسود لا يبرح مكانَه ولا الجوع الضاري.

على ورقة بيضاء بالكامل يتلهّف قلمي على تشكيلها، هي الوحيدة التي تستحق نسج هذه الخطوط التي سأطرز بها بياضي.

لا أفلح هذه المرة أيضا، فكلما حاولت التخطيط تكسر الرصاص، خاصة عند رسم وجهها الذي أتوق إلى رؤيته الآن، في هذه اللحظة وأنا في القسم، فلا أعثر على محيا ولا قسمات، أحاول وأحاول لكن دون جدوى، فيجرفني سيل من الهم والغم.

أستيقظ من تكرار محاولاتي عندما تستقر على وجهي صفعة ساخنة، يصيبني إثرها دوار عميق وحالة من الغثيان، فيتفجر القسم صدى صراخ وضحكات وقهقهات. وعلى مقربة من مكتبه، يهبّ على وجهي كلامه ريحا عاتية هوجاء:

- لم أرك يوما مهتما بالدرس... لماذا لا تنتبه أيها الشقي..؟

أجيبه بصمتي المطبق، وبدموعي المنسكبة من عينيّ الملتصقتين بالأرض. يجرني من أذني و يردف في صراخ:

- سأستدعي أمك هذه المرة... اِختف عن وجهي، هيّا تحرك...

أغادر القسم وحيدا غارقا في دموعي، يلفني الحزن والألم من كل جانب، يحيرني السؤال المضني: لماذا يتكسر الرصاص كلما هممت برسم أمي !؟

البيت مقبرة، لكن بها أحياء تدب فيهم الحياة بهيّة مشرقة ناعمة، يتراشقون بالضحك، بالصراخ، بالمخدات وبكل الأشياء المحيطة بهم. أتظاهر باللعب، فيتضاعف حماسهم أكثر فأكثر، لكني وحدي ميّت، شارد داخل ظلماء عمقي، أبكي وألطم وجهي الصغير النحيف بيدين صامتتين باردتين، لا أدري أهُما يداي...

أغادر المكان مهرولا نحو الحمام، بسرعة أوصد الباب، لا أهتم بإشعال النور، أرتمي في إحدى الزوايا، وألقي بوجهي بين كفي...

رعاية ورصاصة

على الكرسي الخلفي، أتوسد ظهره مستلقيا على بساط من السعادة والاطمئنان وحدائق الأمان، بين لحظة وأخرى أغرق أنفي في لباسه لتمتص أنفاسي رائحته التي لا أشبع منها، بل تزيدني جوعا كلما استنشقت منها أريجا عليلا ينعش خفقي. تسير بنا الدراجة النارية في سكون وكأنها بدون محرك نحو الولي سيدي يحيى، يأخذني إلى حضرته للنزهة والاستمتاع بما جادت عليه الطبيعة من بهاء المناظر، وخاصة تدفق مياه عينه الصافية المتلألئة كالفضة.

لم تكن عينه تغفل عني لحظة. وفادته على مدرستي دائمة ومتواصلة مخافة مكروه قد يصيبني من معلميي أو زملائي، أو ألحقه بنفسي في لحظة طيش أو تهور. كل المدرسة تعرفه: المعلمون، التلاميذ، الحجرات، أشجار الساحة، وربما حتى أسراب الطيور

على أفنانها تعرفه. لا أتعرض كباقي زملائي لأوار العقاب الذي يتفنن في إبداعه معلموي، ليس تجنبا للتصادم مع أبي، ولكن لمكانتي المميزة التي أحظى بها في نفوسهم. فأنا عندهم تلميذ محبوب ، يفتخرون بانتمائي إلى فصلهم لنتائجي الجيدة التي لا تعرف لغة التراجع، وهي لغة لا يتكلمها أبي وإلا تطاير الغضب من شفتيه وصفيحتي كفيه الساخنتين. وإحرازي الرتب الأولى، لم يكن ذهبا تمطره السماء ولا فضة، لكنه حصاد عمل دؤوب يبذره في أرضي، فهو لا يرضى بالنزر اليسير يطرق باب تعلّمي، لهذا تراه دوما يوجهني ببريق الإغراء إلى المطالعة، خاصة قراءة القصص التي يقتنيها لي أو تلك التي استعيرها من المدرسة. تعودت قبل النوم أن أتلو عليه عناوين الجريدة، فيشرح لي الكلمات والعبارات ويصحح ما يتلكأ في قراءتي، ولما يلمح التثاؤب يغزو عيني، يطلب مني الانصراف لأنام.

تلتقط أصابعي من خزانته الصغيرة كتابين قرأت عنوانيهما بسهولة: «البؤساء» لفيكتور ريغو، و»فتاة غسان» لجرجي زيدان.

تفحصتهما نظراتي ورددت شفتاي: متى أكبر حتى أقرأهما. لم أحس بحضوره إلا عندما طفقت كفّه تتمسّح بشعري وهو يقول:

- ستكبر ولدي وتقرأهما.

بهذا كان مستواي الدراسي يرتقي، لكن، ذات مساء التقط سمعي كلمات فاه بها سي حسن:

- ابنك نجيب، لكنه بين الفينة والأخرى يغيب في شرود...

ليس لأبي نظير. يمنحني الحياة بحضنه الأمومي، يدثرني بحبه ويشملني بفائق الرعاية، ينام بجانبي إذا مرضت، ولا يفارقني حتى أستعيد عافيتي، يزرع في قلبي الفرح لما يكفهّر إحساسي وتمطر سحبا سمائي... وعندما يجن الليل، لا يغمض لي جفن حتى أسمع صرير المفتاح يجهر بإياب أبي، فيطرد أشباحا تفجر في قلبي خوفا مرعبا من مكروه قد يصيب أبي. أصدقائي يفتخرون بأمهاتهم وأنا أفتخر بأبي.

لم أفهم، لماذا تفجرت بعض دموعي ذات يوم، لما التقطت عيناي أبي من بعيد وهو ممسك بحقيبته الصغيرة، عائدا من سفر

ألهب في نفسي أحاسيس متباينة من الشوق والخوف والكآبة. عدوت نحوه أسابق الزمن حتى ارتمي عليه أعانقه وألثمه، بحرارته المعهودة يضمني إليه، وبأصابعه يمسك وجهي يتفحصه وهو يردد:

- لم تبكي..؟ من ضربك..؟ هل أصابك مكروه؟

نجلس في مكان يعتريه عشب ونبات، يقدم لي عصيرا وقطعة حلوى، وبمنديله يمسح العرق المتصبب من جبيني، وهو يردد عبارات الامتداح والافتخار بأدائي في المباراة. وبعد استرداد أنفاسي، يتكلم صمت مفاجئ، لكنه يكسّره باستفهامه:

- قال لي سي حسن بأنك تشرد كثيرا في القسم، ما يشغل بالك ولدي؟

أتغافل عن الرد عليه، فيسترجع الصمت وجوده من جديد ليدوم هذه المرة طويلا، أظن أن كلينا يعرف الجواب، والموضوع يبدو أكبر مني، أو خطا أحمر يفرض نفسه علي، أو شيئا من هذا القبيل...

رغم حبّي الكبير لأبي، كشفت لي الأيام أني ميت بالملموس بعد أن أصبت بطلقة، وجثتي الصغيرة لا أزال أراها إلى الآن بأم عيني ونبض قلبي، وهي تتخبط بجناح واحد في جرح غائر ينزف بداخلي دون انقطاع، أما القاتل فهو أبي نفسه. وقد تكون الطلقة أصابت صدر أمي أيضا، فسقطت صريعة هي الأخرى مثلي.

تكلفة مضاعفة

تصعد من داخلي زفرة عميقة، يكاد قلبي يقفز من صدري، أمتطي تصفيق كفيّ، في عمق فضاء أزرق مترامي الأطراف، يخفق جناحاي وهما يسبحان بي في كل الاتجاهات، يرقّصاني على إيقاع فرحي الغامر ويسايران شدو احتفالي، تقاطع زوجتي تحليقي:

- ما بك يا رجل، هل فزت بجائزة مالية وتريد الاحتفاظ بها لنفسك؟

- وأخيرا حبيبتي، أخيرا...

- وأخيرا..؟ ماذا..؟ اللهم فرّج عنا ضيقنا يارب... هات ما عندك، أخبرني...

لم تعد الآلة الحاسبة تفارق أناملي، كما لا تفارقني فرحتي التي انتظرتها طويلا. جميل أن نحقق بعض أحلامنا الوردية في زمن يفوح بالإحباط والإخفاق والخيبات... لكن، ألا يمكن لهذه

الآلة أن تجود بنتيجة في صالحي، أو قريبة من الحل الصحيح على الأقل! سأحقق حلمي مهما كلفني الثمن، ألا يستحق أن يتحقق؟

- اسحب الفكرة من ذهنك عزيزي...

- حبيبتي، يمكننا أن نتدبر الأمر فـ...

- أنت تريد أن تشرّدنا، ألا يكفيك هذا الضيق الذي يخنقنا؟

كلما فاتحتها في الموضوع، واجهتني بلافتات الكراء والماء والكهرباء والأطفال وارتفاع غلاء المعيشة، مؤكدة أنّ ما أرومه ثانوي جدا وليس حتى «خضرة فوق الطعام»، ولا يمكن تحقيقه بميزانية هزيلة لا تكفي لما هو ضروري بله ما أطلبه. لكن لا أجدني إلا مصرّا على أن يخرج مولودي للوجود، وبحساب يرضي زوجتي ولا يضر بهذه الميزانية.

- امنحيني حبيبتي فرصة أشرح لك...

في البداية، معارضتها كانت نهائية لا تقبل التفاوض... لكن بصمود إصراري، بدأ تعنتها يلين، وتقبلها للفكرة ينمو ويكبر

خاصة بعد ما شرحت لها وبإسهاب كل التفاصيل، مؤكدا أن المبلغ المطلوب يمكن استرجاعه في أقرب الآجال:

- أملك على الفيس بوك جيشا عرمرما من الأصدقاء المعجبين بما أكتب، وهم في تواصل دائم معي، ينتظرون مني الجديد على أحر من الجمر، زملائي لا يعدّون ولا يحصون، يقرأون لي باستمرار في الجرائد، التلاميذ الذين درستهم منذ سنوات فأصبحوا طلبة بالكلية وموظفين وأساتذة «قد الدنيا»، زميلاتك وزملاؤك المدرسون والمدرسات، صديقاتك، أقاربي وأقاربك... ألا تنظرين؟ إنه «الخير والبركة»، بل قد نحقق بعض الربح... وأكثر من هذا، سيزيدك المولود الجديد قيمة مضافة: فاطمة زوجة الكاتب رؤوف السعداني..!

عدت محمّلا بالصناديق، وحدها غرفة الضيوف قادرة على استقبالها، أخذت جزءا كبيرا منها، فأصبحت مثل مستودع أو «هري» بتعبير زوجتي:

- لا تقلقي حبيبتي، لن يدوم الوضع أكثر من شهر على أكبر تقدير...

- تظن ذلك؟

- بالطبع، ونسدد كل الدين يا زوجة الروائي الكبير رؤوف السعداني...

- اللهم اجعلني أصدق كل ما تقول.

انهالت عليّ التهاني من كل حدب وصوب، كما اهتم النقاد بروايتي وأجمعوا على أنها ذات قيمة خاصة... أما زوجتي فلم تعد تأخذ كلامي على محمل الجد منذ ان لجأت إلى بيت أهلها «غضبانة»... فكلفني رجوعها - زيادة على الدين - تضحيات، الله وحده يعرف قدرها.

سيدي صالح

جالسة على الأرض بجانبه، غارقة في دموع منهمرة لا تنضب، يتصاعد شهيقها متعاليا بين لحظة وأخرى، تمرر يديها عليه تتلمسه، تتحسسه، تتمسح به، تلثمه، ثم تبدأ في الدعاء والتوسل بصوت متهدج منكسر:

- قْصَدْتَكْ من بعيد، شوف من حالي، راجْلي غدي يطلقني، بغيتْ بْنِية ولَّوْلِيَد، قصدتك يا سيدي صالح... عْطيني بَراكْتك وقْضي لِـي حاجتي، أنا في عارك يا سيدي صالح...

لم يكن أحد يسمع بهذا الضريح، ولا بالمنطقة النائية التي يوجد بها، ولم يكن أحد يظن أن هذه البقعة ستصبح ذائعة الصيت وبهذا الحجم الكبير من الزوار، يأمونها من كل حدب وصوب وخاصة المرضى منهم، لولا هذا الضريح الذي أضحى اسمه يجري على كل الألسن التواقة إلى شفاء، يراه الجميع محققا بين يدي وليّ غدت

عندهم كراماته هدايا ثمينة إلى كل من يتوسل إليه، ويتمسح بقبره ويغدق عليه القرابين. هذا ما كان أهل القرية يؤكدونه للزوار وهم يتسارعون لقضاء المآرب والحاجات، أو يبيعون متطلبات الزيارة التي لم تعد مقتصرة على الشموع والبخور والحروز والمساحيق وجلود الحيوانات، بل تجاوزت هذه الأمور البسيطة إلى بيع الخضر والفواكه والمواد الغذائية وتوفير الذبائح والأغطية وكراء بيوت للمبيت...

ينظر إدريس إلى هذا الكمّ الهائل من الزوار الذين يضعون ثقتهم في الولي، يقاطع تأمله مخاطبا زوجته:

- إنه في الحقيقة ولي صالح، أصلح أمورنا، على يده جاءت هذه الخيرات...

قاطعته الزوجة تؤكد كلامه:

- هذا ما كنت تطمح إليه...

- نعم، انظري، ألم يتغير كل شيء؟

- كاد السكان يموتون جوعا...

ثم تلتفت إليه مبتسمة مواصلة تعليقها:

- لولا سيدي صالح، وليّنا الصالح...

تنظر في عينيه نظرات مفعمة بسعادة، تعقبها ابتسامتها التي يحب، يبادلها بابتسامته التي تحب، يلبس جلبابه الأبيض المخطط بالأخضر والأحمر، يضع القبّ على رأسه، يحك لحيته، ثم يهمّ بالمغادرة:

- سأتوجه إلى الضريح أتفقد «الربيعة».

- يا سيدي صالح، جيتْ نتَبركْ بمقامَكْ لعظيم، وقفت عْلِي في لْمنام، أنا جيتْ عندكْ من بعيد بْعِنِيّ مْغمْضين ناخُدْ بَركْتَكْ، أنا عَندي الدكتوراه وبلا خْدمة ولا ردمة، لا زواج، لا وْلادْ وْلا وْتاد... شوفْ من حالي، أنا فْعارَك يا سيدي...

لم يكن هذا الصوت غريبا عن إدريس، يلتفت قليلا وبنصف عين ينظر إلى صاحبته ليتأكد أكثر، متظاهرا بتسوية الغطاء الأخضر على القبر و«الربيعة» المثبة على الأرض بجانبه. يلاحظ الانكسار

ينطق على تقاسيم محياها، والدموع تتدفق سيولا من مقلتيها، مندهشا يردد في نفسه بعد شرود:

– إنها هي، نعم هي... زينب زميلتي بكلية العلوم، الطالبة المتألقة والمميزة، ماذا تفعل هنا؟

طفقت القرية تتوسع شيئا فشيئا بانتشار الدور والدكاكين والمحلات التجارية... وبدأ السكان ينتعشون بتربية الدواجن خاصة الدجاج والأغنام والعجول، وهي القرابين المفضلة للزوار، يرون في دمائها المنضوحة بماء الزهر و منقوع الحناء، رَواء لروح ولي يزداد تدفق كراماته كلما ازداد تدفق دماء الذبائح على عتبته، بل أكثر من هذا، لوحظ بعض شبان ونساء المداشر المجاورة يعرضون بضائعهم، ويتسارعون لتقديم مختلف الخدمات التي يحتاجها الزوار، فيؤوبون مساء إلى أهاليهم محملين بما ينتظرونه منهم من أكل وشراب والكثير من «البروك»، بعدما كانت هذه المحمولات مجرد أحلام وردية في ليال دامسة.

– يجب أن نجري بعض الاصلاحات على الضريح...

لم يعلق عليها إدريس، يبدو غارقا في تفكير عميق. تواصل كلامها:

- إصلاحات خفيفة، كتغيير الغطاء بآخر أجمل منمق بشراشيف براقة، وتزيين الجدران بلوحات قرآنية وأحاديث نبوية...

تقطع كلامها بعد أن لاحظت غيوما سابحة في سماء عينيه الشاردتين ثم تواصل:

- ما بك إدريس هذه الأيام..؟ وكأنك منغمس في هموم الدنيا، عليك أن تسعد بهذا الخير، بدل أن أراك على هذه الحال...

- ألا ترين هذا الجنون الذي يسكن هؤلاء؟

- لا يهمّنا جنونهم، انظر... الجميع بخير.

- بخير...؟ لم يعد يغمض لي جفن، لم أعد أطيق...

تلتقط أذناه توسّلها وبعضا من غمغمات زوجها، يرنو إلى دموعها تنسكب من مآقيها، وإلى شفتيها تقبلان القبر في استعطاف وعظيم استرحام:

- أنا ورجْلي طالبين بَرَكْتك لعْظيمة يا سيدي صالح، شوفْ من حالنا، ولدنا ضَرْباتو عينْ، ولّا كيهضر بحْدو، وَلْدنا حْماق يا سيدي صالح، حماق، حْنا فْعارَك، غير يَبْرا ولْدي نْديرْ ليك وَعْدة كبيرة سيدي صالح...

يشعر إدريس بالضيق يجثم بثقله على صدره، تزيده اختناقا روائح البخور المنبعثة من المباخر، يغادر المكان وعيناه لا تبرحان الأرض، تصكّ الأدعية أسماعه، يذبح التوسل إحساسه، تشنق زينب أنفاسه... يحادث نفسه وهو في طريقه إلى مكان لعله يهدئ فيه من حرارة تستعر بداخله:

سأكشف لهم حقيقة صالح طال الزمان أو قصر، سأجهر لهم بالحقيقة، لكن هل سيصدقونني وأنا قيّم الضريح؟ قد يذبحونني ويقدمونني قربانا يتقربون به من وليّهم، سيّدهم هذا اللعين صالح.

صديقي مناضل

يتسلل إلى خاطري صديقا جميلا، ينساب أريجه في هدوء عبر فتحات تلاقينا واجتماعاتنا، عود تفور في دمه حيوية ناطقة بالمبادرة والإقدام... لم يكن في البداية عزفا يطرب إعجابي، ولا حرفا يستهوي تصفحي، فهو مجرد زميل ببذلته المهنية الجديدة، لكن مع هذا الإحساس الذي ينبجس بداخلي كلما بزغ أستاذ شاب في سماء المؤسسة، ألامس فيه امتدادا لطريق مفروشة بالشوك أشرفت على نهايتها. يقتحمني بمرحه ومستملحاته وإثارته لمواضيع متنوعة لا يروقني الخوض فيها، ربما لأن حماسي للنقاش بدأ يفتر، أو للفرق الكبير في السن بيننا، فأنا على مشارف التقاعد، وهو لا يزال يبصم خطواته الأولى في مسافة ألف ميل. كلما التقطتني عيناه، هرولت قدماه نحوي، تسبقه ابتسامته وانفتاح عريض لأحضانه لمعانقتي بحرارة وكأن الغياب طال دهرا، فيبدأ تدفق حديثه عبر مشارب متنوعة، يستهله في أغلب الأحيان بموضوع صديقة خذلها أو

خذلته، أو أخرى جديدة... وهو يستعرض نسائم لقاء جديد، أقاطع نشوة كلامه:

- فتح نسائي جديد كالعادة...

- قل فتحا جنسيا جديدا...

- الجنس...

- الجنس محرك التاريخ رفيقي...

وأنا على ضفاف المقاطع الأخيرة، مشدوه أمام النهاية المأساوية التي آل إليها البطل، يهتز هاتفي، يظهر اسمه في الشاشة:

- انتظرك في المقهى..

- لكن....

- لا أقبل أي عذر، أنا في انتظارك... مسافة الطريق.

تغمرني موجة حرج، يصعب علي الانسلال من انتشاء القراءة، لكن تتفتق بداخلي هذه المتعة التي أستشعرها في لقاءات لم تعد رهينة المؤسسة فحسب، بل تمتد مسافات إلى المقهى والشاطئ

وحضور ندوات، لقاءات ثقافية، محاضرات... مما يجعلني أكتشف يوما بعد يوم، أن علاقتي بهذا الشاب الظريف ليست عابرة كما ظننتها في البداية، وإنما جذورها تتقوى وتشتد بعد كل لقاء، فأجدني أحضنها وأسعى جادا إلى الحفاظ عليها. يقابلني بابتسامته المعهودة، يرتمي علي يعانقني بحرارة:

- اشتقت إليك رفيقي...

لم أسترجع أنفاسي بعد، حتى اتقد النقاش بيننا كالعادة. لم نكن في الحقيقة نتآلف في أفكارنا، فالاختلاف بيننا سيد الموقف دائما، لكني أجد أن التعارض في الأفكار والمواقف هو الذي يجمعنا ويقوي وشائج العلاقة بيننا أكثر، متشبعا بمقولة «الاختلاف لا يفسد للود قضية». يحضر منذ البداية موضوع مديرنا، أعرب عن قلقي من مواقفه التي لا تستوعب ما نرومه من تغيير داخل مؤسستنا:

- نبتغي فريقا تربويا يشتغل بالحوار والتواصل البناء، من أجل المصلحة العليا للتلاميذ...

- إنه متمسك بلغة الخشب التي أكل الدهر عليها وشرب...

- أترى كيف انتقم من الأستاذ عليّ لمجرد الإفصاح عن رأيه في موضوع...

يقاطعني:

- يجب أن يسقط هذا الرأس وأمثاله... لهذا سنخرج الأسبوع المقبل في مظاهرة، إننا نقوم بتعبئة الجماهير للمشاركة بكثافة لإسماع صوت الشعب، لابد من اجتثاث جذور الفساد الجاثم على البلاد والعباد، سنطالب هذه المرة...

- أعرف ما ستقوله... هكذا دفعة واحدة !!

- نعم، بلدان عربية تخرج إلى الشارع تروم التغيير. الكل يفور ويغلي...

- هل تظن صديقي ركوب الشارع بالصراخ والشعارات يحقق دائما ما نصبو إليه من تغيير منشود...

- لم لا، أين المشكل؟

– لكن، قد يؤدي بنا هذا إلى ما لا تحمد عقباه... إذا كانت المنطلقات مبنية على أوهام وأخطاء...

– ما لا تحمد عقباه! أوهام..؟

– وهل تتوقع أنّ كل الجماهير الشعبية ستخرج بهذه الشعارات التي...؟

– قد أتجاوز حدودي إن وصفتك بالرجعي... لِمَ لا تؤمن بالثورة صديقي...؟

– ما مفهومك للثورة صديقي؟

يقاطع النادل حوارنا، يتبين أننا الوحيدان المتبقيان في المقهى التي تتأهب لإغلاق أبوابها، ننصرف مواصلين نقاشنا الذي لا ينتهي.

صديقي يفيض حيوية ونشاطا، يقضي معظم أوقاته في التجمعات الحزبية مع رفاقه المناضلين، يحضر نشاطات الجمعيات، يعبئ الناس للتظاهر ضد الفساد، يعتصم مع المعطلين، يتظاهر مع العمال، تصرخ أوداجه بالمساواة وسط النساء... أحيي فيه هذه

الحيوية، وخاصة رغبته المستميتة في تغيير الأوضاع، رغم اختلافي معه في كثير من المواقف وآليات التغيير. أبتسم عندما أشاهد صوره في الصفحات الأولى من الجرائد وسط رفاقه المناضلين أو في أي مكان يتوهج بحضوره... يبدو صديقي بطلا حقيقيا. أجدني أردد في نفسي: إنه صديقي، صديقي... أحترمك رفيقي.

يضطر صديقي لتغيير المدينة لظروف عائلية... يُخلف بُعده في نفسي فراغا مذهلا، لا يخمد شوقي إلى لقاءاته المفعمة بحرارة مشاكساته. في البداية أجدني على اتصال دائم به، لكن مع مرور الزمن، والانشغال بمتاهات الحياة، يخفت هذا الاتصال ويتلاشى، حتى أخباره التي أتتبعها في بعض الجرائد، يبتلعها الأفول والغياب، لكن اسمه لا يمّحي من ذهني ولا أفكاره...

يهتزّ هاتفي بطلوع اسمه في الشاشة. تغمرني فرحة عارمة، يندلع شوقي إليه من جديد، وينبعث في نفسي جيشان تلاقيه. يرتمي عناقه علي بحارا، استفسره عن صمته المدوي على غير عادته... نتراشق كالعادة بألفاظ ومستملحات خاصة بنا، نضحك حد القهقهة... لكن يثير انتباهي تقلب هيئته: وزنه، أناقة زائدة على

الحد ببذلة سوداء، قميص أزرق، ربطة عنق سماوية، تصفيفة شعر جديدة، نظارات شمسية آخر صيحة... لم يمت في صديقي حماسه ولا اندفاعه، ينهمر حديثه متدفقا كعادته، لكن يدافع هذه المرة عن أفكار حزبه الجديد، يمجّد إنجازاته، يمدح رئيسه ويصفه بالزعيم الذي يملك الخلاص، يؤكد أن البلاد جنة على الأرض، لا ينقصها سوى اعتراف الجاحدين بخيراتها، وأن تعبئة المواطنين ضد الحساد هي من أولويات البرامج...

يقاطع شرودي انهيارَ كلامه، لم أستفق منه إلا وهو يردد اسمي ويدعوني إلى تناول قهوتي...

ظلال المشورة

يضع محفظته السوداء المترهلة على مائدة صغيرة مستديرة قصيرة القوائم، يرتّب على الرف ما أحضره من حاجات ولوازم، يخلع قلنسوته ويخفِضها على فراش ممدد على الأرض، يتجرد من عباءته البيضاء الفضفاضة، يعلقها على مسمار كبير مطرق على الباب. من قلة مثبتة في إحدى الزوايا يسكب كوب ماء، يتحسس برودته المنعشة وهي تطفئ فائق عطشه، يضع مخدة خلف ظهره، يمدد رجليه على الحصير، تتفحص نظراته المكان من كل جانب، ترتسم على محياه ابتسامة تنطق بالارتياح والطمأنينة، يواصل بكفه مسح ما تساقط من قطرات الماء على لحيته البيضاء المنسدلة على صدره، يردد في نفسه: اللهم لك الحمد والشكر، اللهم...

تفيض شفتا لفقيه سليماني بحمده لله على هذه الغرفة التي وهبها له سكان دوار الناشف تقديرا لمكانته وتعظيما لوقاره، فهو

حامل لكتاب الله في صدره، عالم بأمور الدين والدنيا، نور الورع يتوهج على محياه ويسطع على تقوى لسانه. جميعهم يرون في هذا الوافد من بعيد تقيا من تقاة الله، يتبع رزق الله في بلاده الواسعة، يزرع فيها التقوى والتبتل ومخافة الله.

ليس بعيدا عن إقامته، يجعل لفقيه سليماني من ساحة صغيرة تغطيها بعض الأشجار قسما يلقّن فيه الصغار حروف الأبجدية، يحفّظهم القرآن ويعلّمهم الوضوء والصلاة والقيم الدينية، كالصدق والأمانة والوفاء وطاعة الوالدين... حتى النساء غدون مثل تلميذات يتعلمن منه، يلجأن إليه بين الفينة والأخرى يستشرنه في أمور دينية كثيرة كالزواج والطلاق والنفاس والعدة... والرجال أنفسهم يكلفون زوجاتهم بالتوجه عند لفقيه يستفسرنه حول أمور تهمهم، كترك الصلاة، والسماح بتعدد الزوجات، وعصيان الزوجة لزوجها ورفع صوتها عليه أو هجر فراشه... كن ينقلن إليه أسئلتهم ويضفن إليها الكثير مما يَـتُـقن إلى معرفته، لكنهن يغربلن الإجابات، وينتقين منها ما يروق لهن ويرين فيه ظلالا وارفة من السلم والاطمئنان مع أزواجهن.

ترى لفقيه سليماني حاضرا في كل المناسبات، يدعوه السكان إلى أفراحهم كالأعراس والعقائق ومختلف الولائم... يفتتحها بقراءة القرآن، ويختتمها بقراءة الفاتحة ورفع يديه بالدعاء لصاحب الوليمة، والحاضرون يؤمّنون على دعائه، فيتدفق الفرح أمواجا في قلوب أهل البيت وكل المدعوين من الدوار. مكانة لفقيه في الدوار درة لا تقدر بثمن، يحبه كل السكان، صغارا وكبارا نساء ورجالا، ألْفوا في مجاورته الوقار والرشاد والمشورة القريبة وبثمن يعدّونه زهيدا، مقارنة بما يمنحه لهم من حضور ديني يرونه غاليا.

لم يكن في حسبان بعض نسوة الدوار أنهن سيلتجئن خلسة ذات يوم إلى لفقيه سليماني، وبجرأة زائدة على الحدود، يطلبن منه بطريقة أو بأخرى تقديم يد العون لهن في أمور شخصية جدا، من هؤلاء الطاهرة التي تبرّع زوجها على الفقيه بمسكن ورثه من أبيه. لم يعد بمقدور الطاهرة تحمّل ما يتأجج في صدرها من ظنون حول زوجها، منذ الإقبال على ارتياده المستمر للمدينة طلبا للرزق، فأضحت فريسة شهية تنهشها غيوم الشكوك وعواصف

الارتياب، هذا ما تبوح به للفقيه لعله يقدم لها وصفة سهلة وجاهزة تقيها من فضيحة زواج الجيلالي عليها.

بعد ظهر يوم جمعة، يمسك قلمه القصبي، يغمسه في الصمغ، يرسم على ورقة متوسطة الحجم جدولا يخطط بداخله وخارجه حروفا وأرقاما وآيات قرآنية أفقيا وعموديا ودائريا... تتابع الطاهرة بنبضها حركة القلم وكلها ثقة في هذه الترسيمات والتشكيلات المسكونة ببركة لفقيه، ستغشي قلب الجيلالي وتمسح منه بقدرة سحرية أثر أي امرأة تبعدها عنه:

- ضعي هذا الطلسم في فراشكما بمكان لا يراه، إنه نافع بإذن الله.

تنحني الطاهرة تقبل يده، تدسّ نقودا ورقية في كفه، تحجب رأسها ونصف وجهها، ثم تنصرف في خطاها الحثيثة.

لكن الطاهرة تعود إليه مضطرة، تروم «عملا» آخر أكثر فعالية يمنع الجيلالي من الزواج من إمرة أخرى، تبدو هذه المرة على حافة الانهيار، لم يكتمل كلامها حتى انفجرت عيناها بالدموع تتدفق حزنا وألما، يقترب منها لفقيه وهو يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله... الله يهديك أجيلالي، الله يهديك ...

بلين يمرّر كفّه على رأسها وهو يتلو بعض الآيات، يلاحظ نضوب عينيها واسترخاء عاصفتها، ينتصب واقفا، يصادف لعبة صغيرها لم ينتبه إليها، فيتلقفها من الأرض ويخفيها على عجل، يلقي بعينيه في الخارج تتمسحان الأرجاء، يوصد الباب بتؤدة، ثم يعود إلى مكانه بجانب الطاهرة.

مناورة

صمت مشوب بالحذر، قابل للانفجار في أي لحظة. الترقب سيد الموقف من كلا الجانبين، ولكل منا استراتيجيته للتحرك وصدّ الهجوم والخروج بأقل الخسائر. أتنقل من زاوية إلى أخرى بنظرات حادة، ممزوجة أحيانا بابتسامة خفيفة تظهر وتختفي حسب إيقاع نفسي، يفرضه وضع لا يمكن الوثوق في صمته ولا سكونه.

– أرجوك ابني لا...

– أعتذر...

– لا بأس...

أجد الرد كيّسا لطيفا ومؤدبا... وما يزيد من تنامي إحساسي بالأمان، هو هذا الصمت الذي يسدل جناحيه على القاعة، صمت لا يكسره إلا صرير أقلام أو بعض من وشوشات خجولة، أتصدى لها بملاينة تُجنبني احتكاكا أو اصطداما أنا في

غنى عنه. أريد أن أخرج بسلام وبأقل الأضرار من الطرفين، لكن دون تواطؤ أو انقياد لسيل داهم قد يأتي على الأخضر واليابس.

هات ما بيدك ابني، هات...

- مَعَنْدي والو... كلهم فْهاد البلاد كَيْغشّو وحاطّينْ علينا غير حْنا...

- قلت لك هات ابني....

أنتزع منه القصاصة، أضمها إلى الركام المتصاعد على المكتب، بينما تنقض علي نظراته الشزراء تنهشني بأنياب حنقه:

- حتى تخْرج على برّا ونْتفاهْمو...

يومض في عيني النصل الذي كاد ذات حراسة يخترق عمق جوفي لولا ألطاف الله... أواصل مروري بين الصفوف، أسترق نظرة من ساعتي، يبدو الزمن عنيدا رغم انصرام نصف الحصة. تصعد من أعماقي زفرة ملتهبة، ومع ذلك أشعر بالرضا لحد الساعة ما دمت متحكما في زمام الأمور.

يثير انتباهي أحد التلاميذ، لا يكف عن الزفير وكثرة الحركة على مساحة مقعده، تنضح تقاسيمه السخط والتوتر وعدم الرضا. أقترب منه في هدوء، أختلس النظر إلى ورقته، لا يزال البياض فيها سيد الموقف. أحاول التخفيف من توتره، أنبّهه إلى الزمن المتبقى من الحصة. يفاجئني بدويٍّ صرخة:

- هاد شي مَقْرِناهْش، مَبْغيتوناش نْجحو...

أربت كتفه وألتمس منه الجلوس:

- ركز قليلا ابني...

أقف وسط المصطبّة، أدعو الجميع إلى الانضباط، أحتوي القسم بنظراتي من جديد، أحس بقليل من الارتياح بعد اطمئناني لعودة المياه إلى مجاريها. ملامح التلميذ لا تزال تفيض غضبا واعتراضا وعدم رضا، يبدو ممزقا بين الورقة والساعة والنظر بين الفينة والأخرى إلى جهة الباب، خاصة عند التقاطه وقع الخطوات في الممر. لم يكد الهدوء يستعيد نبضه الذي فقده قبل قليل، حتى انفجر صراخه من جديد، مصحوبا هذه المرة بضربة قوية بقبضة اليد اليمنى على زجاج نافذة بجانبه، تناثر فتاتا على الطاولة والأرجاء المجاورة. تنقطع أنفاسي أمام

هذا المشهد المُريع، يزيد من ذهولي الدم النازف من يده، بينما ينقسم التلاميذ بين مندهشين، ومستغلين لفرصة من ذهب قد لا تعوض.

تضع معيدة ضمادا على يده... بينما يصرف وجهه إلى الباب وهو يصرخ:

– وعباد الله كفاش نكتب دبا...؟ هادْ لمتِحانْ آخر فرصة... شْكونْ يكتبْ لي دبا...؟

وأمام أنظار المسؤول الذي حل بالمكان، يتسلل من خارج القاعة تلميذ يعرض تطوعه...

أخطو خطوتين إلى الأمام:

– لكن، لا يمكن...

بصوت خافت يقاطع كلامي:

– لا ضير أستاذ، أنا المسؤول، ينتظرني عمل كثير... أحاول امتصاص الفوضى التي عصفت بالقسم، لكن تركيزي لم يكن ليفارق التلميذين، أحدهما تعتريه ابتسامة عريضة، والآخر يسابق ما تبقى من عمر الزمن.

ألوان باكية

منتصبة على قدمي القلق والارتباك، غارقة في عمق توتر وارتعاشة نفس وارتجاف نبض ووجع مخاض. يناديها بصخب صوته المترامي الأطراف، يبدو بلا عنوان ولا تخوم ولا نهاية، يراودها عن نفسها، يغريها باقتحامه... أدمن ألوانها سحبا داكنة يرشف منها السواد والرماد وخرير الدماء:

- إني هنا، الا ترينني، اغمسي الريشة، لطخي صدري، اغمريني... ألا تسمعينني؟

كلما ناداها إغراؤه، استجابت في طواعية، تلبي طلبه دون تردد ولا مساومة، وحده تضعف أمامه، فتعري فيه صدرها النافر المنتفخ بسواد زمن أرعن مجنون يخبط خبط عشواء، تصيب الجميع وتميت الجميع. ترد عن سؤال صحافية: إننا في العالم السفلي،

موتى نصلى العذاب المرير في طريق إلى موت لا ندري كيف هو الحقيقي... ألا ترين؟

تجيبها بقدرة قادر عن بعض الأسئلة السريعة، تدردش معها قليلا جدا، فهي لم تعد قادرة على التنفس بسبب الأدخنة الثقيلة الدكناء على رئتيها، فبالأحرى الكلام طويلا عن واقع أبلغ من الكلمات والألوان وكل أنواع الإبداع.

الكثير من أصدقائها وجيرانها وأقربائها يلملمون بقايا أشياء، يتربصون بأول فرصة للانقضاض على مركبة أو مركب يسلّهم من انقاض موت لا كالموت، من جحيم نار تحرقهم الى آخر قطعة من لحم او عظم لتحييهم من جديد، فتعاود الكرّة من جديد، ينقلهم إلى أي بقعة أو مكان يضمد عظامهم أو جلدهم أو أي قطعة لحم من بدن أحرقته حمم البركان.

لكنها وسط روح النار مشغولة، تبحث عن بقايا صباغة في عمق متلاشيات دواليب، عن ريشة من تحت حطام مرسمها الذي عشقته منذ نعومة أظافرها. سماء زرقاء تسبح في عمقها

الطيور متراقصات، السنابل خضراء والنخلات باسقات، وباقات جوري باسمات متبسمات، والأسوار بهاماتها مرتفعات شامخات، و... و... و... ويتصاعد من عمقها لهيب زفرة لا يجد فيها ما يلتهمه لسانه.

تتدبر أمرها بعد ان تبسم لها طيف حظ حين وفر لها بقايا أدوات، عثرت عليها كمن يعثر على فقيد غاب دهرا بين الانقاض. يلتهما بياض مخالف، لم يعد في المكان بياض، ولا في الأفق ما يدل على بياض... تسكب الصباغة بسوادها، تدر عليه رماد زوجها وابنها الرضيع، وابنتها أحلام وابنها فراس و الورد الجوري في حديقتها، تطل عليه كل صباح، يطمئنّ نبضها عليه...

ومن صُلب الألوان المسكبة في الأعلى كأديم سماء، تندلق الدموع، تتدفق في شكل غدران نحو الأسفل، تتماهى مع صبيب دموع منسكبة أيضا من عينين كبيرتين لملامح ظلال وجه امرأة خافت، يمتصه ذبول وتأكله عتمة من كل جانب... لم يعد للبياض أثر، لكن تظهر بعض البقع الخضراء، في طريق مجرى الدموع يتربص بها سواد في شكل مسخ بعينين من نار...

لم تفكر في العنوان، وُلد مع كل لون وكل لطخة وأنة وخفقة ورشفة وجع: «ألوان باكية».

تخرج من الألوان الباكية بهذا العنوان، وهي تمسح دموعها بيديها الملونتين بصباغة عمقها... تخرج من التشكيل، تنظر اليه من بعد، تبتسم لمولودها الجديد شبه ابتسامة، لكن يداهمها اللحظة رعب مجنون يرج نبضها وأركان المكان، يصك سمعها هدير الطائرات ودوي المتفجرات وأصوات الرشاش... ليس في المكان دراع ولا جدران ولا سقف ولا أي شيء تحتمي به...

دون تردد، ترتمي في «ألوان باكية».

جنون

بفظاظة يأمرها أن تمتثل لطلبه، يدفعها حتى تكاد تسقط على رأسها. يظهر أنها لا تريد أن أن تتحرك قيد أنملة من مكانها، بينما هو يصرّ على أن يقتلعها منه. إمرأة في الثلاثين من عمرها أنيقة الملبس جميلة الهيئة، لكن تبدو عنيدة، فنظراتها الشزراء إليه تنبئ بعدم التنازل عن موقفها. يناور وبشتى الطرق لتذعن لأمره، لكنها لاتعير كلامه أدنى اهتمام، مما يلبسه سَحنة من التوتر والغليان، فيبدو ثورا هائجا ثابتا في مكانه، لكنه متأهب للانطلاق بين الفينة والأخرى كي يغرس بدون رحمة في أي كان قرنيه الحادين. تنسلّ امرأة في سن أمه من المتجمهرين المنجذبين إلى ما يحدث، تدعوها بلطف إلى مبارحة المكان، وتدعوه بدوره إلى الاهتمام بما هو أهم، مبدية له أن وقوفها بالمكان لا يشكل أدنى خطر على أحد، فيأتي رده عليها بيده قبل شفتيه وهو يصدّ اقترابَها منه. يدوّي صوته كريح مزمجرة في وجهها:

- اِهتمي بشؤونك، هذا لا يعنيك...

- من فضلك أسيدي...

- اغربي عن وجهي وإلا ستندمين أيتها الفضولية، ما أكثركن، هيا تحركي تحركي.

فما كان عليها إلا أن تبتعد وهي تضرب كفا بكف وتردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

لا تزال المرأة متسمرة في مكانها، شاردة بعينين مستقرتين في الأرض، لكن سرعان ما تباغته بقهقهة وهي تشير إليه بسبابتها. يندهل الجميع أمام ردة فعلها، ويتوقعون أنها خطوة جديدة في مواجهة خصمها. تواصل قهقهتها الغريبة وهي تنظر ناحيته، يندفع نحوها بجثته الثقيلة يدفعها إلى الخلف، فتهوي أرضا على ظهرها بطريقة مؤلمة بدت فيها ملابسها الداخلية. يتدخل بعض الحاضرين يحجمونه عن سلوكه الذي استهجنه الجميع، لكنه يحرر العصا من معقلها ويلوّح بها في وجه المقتربين منه، يصيح من جديد والعرق يتصبب من جبينه:

- بهذه العصا أهشم رأس كل من يقترب من هنا...

تسترجع المرأة وقفتها، تنظر حواليه وتطلق قهقهاتها من جديد وهي تشير بسبابتها إليه. لم يفهم الجميع قصدها، لكن بدأوا يتأكدون من أنها هي من تقوم باستفزازه الآن، بل أكثر من هذا يتساءلون عن سبب تشبثها بذلك المكان وعدم رغبتها في مبارحته... لكن هاهي الآن تهمّ بالمغادرة، تسلّ مرآة من حقيبتها، تصفف شعرها، تزين شفتيها، ثم تلقي بأحمر الشفاه أرضا بطريقة عشوائية، بينما هو يتابع حركاتها وأنفاسه تتصاعد، وعيناه تتطايران شررا وتكادان تخرجان من محجريهما.

يتنفس الجميع الصعداء لما بدأت تتحرك، تخطو خطوات متعثرة يفهم منها أنها تفكر في الاتجاه الذي ستنحوه. تبدو المسافة تتسع بينهما قليلا، ويبدو الجمع في انفضاض بعد التأكد من أن المشكل قد حل. لكن، تتوقف بغتة عن السير، وتبدأ في صياح يصدر من عمق جوفها:

- « تفو» عليك يا ولد... « تفو»...

يشده الناس من جديد أمام تصرفها، لم يكن أحد يظن أنها ستفوه بمثل هذا الكلام البذيء، حتى مظهرها لا يوحي بأنها وقحة إلى هذا الحد، لا تراعي هؤلاء الناس أمامها. تتفجر قهقهات صاخبة ثم تصيح من جديد:

- امراتك قـ... «تفو» عليك يا ولد...

في رمشة عين يلفظه جوف الأرض بجانبها، تلجم صوتَها دفعة قوية تطرحها أرضا، يبصق في وجهها مرات، ثم في رأسها يفرغ سلاحه الوظيفي.

مشاكَسة

تقاطع مرة أخرى سفري في أجواء الدرس:

- إنها قصة جميلة، ستروق لك، أحضرتها من أجلك، اِقرأها واحتفظ بها...

تتصفحها أناملي، تلتقط عيناي صورا بالألوان تبدو رائعة، لكني لم أنسَق مع تشكيلاتها المثيرة، فأقطع التصفح وأضع قصتها على كراستها جانبا دون أن أنبس بكلمة، ثم أركب نقل الدرس المثبت على السبورة. وأنا مستغرق في الحروف والكلمات، تسترق انتباهي أصابعها وهي تتسلل من جديد إلى مقلمتي تتناول أحد أقلامي. لقد اعتادت الاشتغال بأدواتي، تسِرّ إلي دائما بأنها تروقها ولا توثِر غيرها. في الحقيقة لم تكن لديّ أدوات بالمعنى الحقيقي، فهي مجرد أقلام معظمها فاض مداده، قلم الرصاص أقصر قزم في العالم، مِمحاة قضم منها الزمن فمحا بياضها، شِبه مسطرة تصلح

لكل شيء ماعدا أن تسطّر بها... تُرى ماذا يروقها في أدواتي التي أكل الدهر عليها وشرب !

أعود من جديد للدرس، لكن لم تمر لحظات معدودات نقلت فيها سطرين اثنين بالتمام والكمال، حتى يتسرب إليّ دبيب لكزتها من تحت الطاولة، تمرر لي صورة بالألوان: طفلة في مثل سنها بشعر أشقر منسدل على الكتفين، وخدين حمراوين مثل التفاح الذي أحبه، وعينين صغيرتين متوقدتين... إنها هي، هي... ! أنظر إليها بعلامات استفهام، تفهم قصدي وعلى وجه السرعة، يأتي ردها على وُريقة منكمشة الجوانب خطّت عليها:

- «أتريد الاحتفاظ بها...؟»

يبدو سلوكها ضبابا يحجب عني الرؤية عما تر ومه بتصرفاتها، وتغدو أفعالها تضايقني وتصادر انتباهي في كل لحظة أتابع فيها الدرس، أضيق ذَرعا بسلوكها، لم أعد أطيق هذه المشاكَسة التي لا تكاد تنتهي. قبل أن أعود إلى عالمي من جديد، أفكر في أن أتحلّى بشجاعة نادرة، فأرجو من معلمي تحويلي إلى مقعد آخر يوفر لي راحة الابتعاد عنها، وقد أطلعه إن طلب مني السبب، على ما

تقترفه في حقّي من تشويش يقتلع انتباهي من الفصل ويلقي به بعيدا خارج التحصيل.

يجذَل قلبي لصوت الجرس، أهم بجمع عُدّتي المدرسية في عجلة من أمري، حتى أنصرف إلى معلمي أخبره بما خططه تفكيري. وأنا غارق في اختيار وترديد الكلمات والعبارات، تفاجئني بيدها تعانق ذراعي وهي تحدّثني:

- ما بك ! أراك مسارِعا في جمع أدواتك، رويدك... !

توغل يدها في محفظتها وتستلّ منها علبة، تزيل غلافها، وتناولني قطعة:

- خذ، إنها لذيذة... هيا تناولها.

أحدّق في القطعة، أرفع عينيّ إليها، أرسم نظراتي على نظراتها، ثم أقضم جزءا منها. تبادر بإمساك ذراعي مرّة أخرى وهي تسألني:

- كيف تجدها..؟

- لذيذة...

تتهلل أساريرها وتنفرج على ثغرها ابتسامة:

- أتمّ قطعتك، أحضرت العلبة لك...

إننا الأخيران اللذان يغادران القسم، يقودنا انشراح وتراقصنا سعادة تحت حثّ خطانا حتى عتبة البوابة، حينها تكبح جماح اندفاعنا. تمسك بيدي، وبصوتها الخافت تسألني :

- هل تحفظ الأسرار؟

- نـعـعمـمم...

- أفضّلك عليهم جميعا سامي، لن تجد صديقة مثلي... لنحافظ على العهد بيننا إلى الأبد، اِتفقنا ..؟

الفهرس